بسم الله الرحمن الرحيم

درجات الصاعدين الى مقامات الموحدين

محمد بن أحمد الحفظي
شوال سنة 1222هـ

تم تنـزيل هذه المادة من منبر التوحيد والجهاد

http://www.tawhed.ws

http://www.almaqdese.com
http://www.alsunnah.info

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الغنى الحميد، وصلى الله سيدنا محمد المبعوث بالقرآن المجيد وصحبه وصالح العبيد.

أما بعد:
فهذه ثمان درجات يرقى بها المستفيد الى معارج علم التوحيد، ويصعد عليها السالك الى مدارج حكم التفريد، ويجاز بها دركات الشرك والتفنيد، ويطلع عليها الجاهل من أسل سافلين الى أعلى عليين، وسميتها درجات الصاعدين الى مقامات الموحدين.

الدرجة الأولى

إن أصل البعثة ورأس الدعوة هو توحيد الألوهية، الذى هو إفراد الله بالعبادة ونفى الشرك عنها، والدليل على ذلك قوله تعالى فى أول آية نادى بها النبى صلى الله عليه وسلم:
(ياأيها المدثر*قم فأنذر* وربك فكبر*وثيابك فطهر* والرجز فاهجر) وفى التفاسير أن الرجز هى الاوثان، والهجر: هو الترك، وفى الحديث النبوى ما يدل على أن عبادة الشئ، وثناً فى قوله صلى الله عليه وسلم: "اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد" وقال سبحانه وتعالى:
بسم الله الرحمن الرحيم (أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون، ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن انذروا أنّه لا إله الا أنا فاتقون) .
قيل : مروهم بلا إله الا الله، ذكره البغوى رحمه الله فى تفسيره
وقال سبحانه: (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) .
وقال سبحانه وتعالى فى سورة الانبياء: (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا إله الا أنا فاعبدون) .
والطاغوت : أسم عام لما يعبد من دون الله، فطاغوت كل قوم معبودهم من دون الله، او متبوعهم على غير بصيرة من الله، او مطاعهم فى معصية الله، او حاكمهم بغير ما أنزل الله .
وهذه الادلة فى بيان دعوة كل رسول، قال تعالى: (إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله) .
وأما التفصيل فقال سبحانه وتعالى فى سورة نوح: بسم الله الرحمن الرحيم: (إنا أرسلنا نوحاً الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم، قال يا قوم إنى لكم نذير مبين، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) .
ومعنى الانذار : الأمر بالعبادة التى هى التوحيد، والتقوى والطاعة، وذكر الله سبحانه وتعالى ما قاله نوح عليه السلام فى سورة نوح وما قاله قومه: (وقالوا لاتذرن ألهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا) وهذه أسماء قوم صالحين ماتوا جميعاً، فحزنوا عليهم ونصبوا صورهم، وكان يعكفون عليها ويعبدونها بعد طول المدة، وكان ذلك أول شرك بنى آدم، وسببه الغلو فى الصالحين.
وهذه الصور أصولاً لأصنام قريش ايضاً، وقال تعالى فى إبراهيم الخليل عليه السلام فى سورة العنكبوت:

(وإبراهيم إذ قال لقومه أعبدوا الله وأتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون) وقال سبحانه فى سورة الشعراء: (واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون، قالو نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين، قال هل يسمعونكم إذ تدعون او ينفعونكم أو يضرون، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، قال افرأيتم ما كنتم تعبدون، أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين) .
ففى هذه الآيات، أن عبادة أصنامهم هى العكوف عليها، وأنهم لا ينفعون ولا يضرون، وأنهم حملهم على ذلك إتباع آبائهم، وأن إبراهيم عليه السلام قال: (إن العابد والمعبود عدو له إلا رب العالمين)، وقال سبحانه وتعالى فى سورة الممتحنه: (لقد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه) الآية.
وهذه الآية فيها وجواب البراءة منهم والكفر بهم وظهور العداوة والبغضاء حتى يؤمنوا بالله وحده فالغاية التى ينتهى عندها هذه الأمور هى الإخلاص فى العبادة والتصديق بالله والإذعان له وقال الله تعالى فى سورة الزخرف: (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون، إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين) (وهذه الكلمة الباقية فى عقبه هى) معنى (لا إله ألا الله)، إذ معناه يعنى أننى براء منكم (النفى)، وقوله إلا الذى فطرنى، (الاثبات)، ذكر هذا البيهقى فى كتاب (الأسماء والصفات) وقال الله تعالى فى سورة النحل: (ثمّ اوحينا اليك أن أتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) .
ومعنى الخطاب يقتضى العموم، فهذه ملة أبينا إبراهيم أيها السالكون، وهذه سنة نبينا – عليهما السلام أيها المتبعون، قال تعالى : (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله أصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) .
وقال سبحانه وتعالى فى سورة الانعام: (وتلك حجتنا أتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ووهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين، وزكريا ويحيى وعيسى والياس كلاً من الصالحين، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين، ومن ابائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) .
وهاهنا أسكب العبرات، إذا كنت من أهل الاعتبارات، لمعانى العبادات.
والحجة التى أوتى إبراهيم على قومه : قال مجاهد هى قوله تعالى: (والذين أمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) ذكره البغوى، والظلم ها هنا هو الشرك، ذكره البخارى فى صحيحه فى كتاب التفسير ، وقيل هى التى احتج بها إبراهيم على قومه من أقوال الكواكب وغيرها.
وقال الله تعالى وهو أصدق القائلين: (ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين، بل

الله فاعبد وكن من الشاكرين) والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته.
وقال الله تعالى فى سورة الأعراف: (لقد ارسلنا نوحاً الى قومه فقال ياقوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) .
وقال تعالى (والى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون) وقال سبحانه وتعالى: (والى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) وقال الله تعالى : (والى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) وذكر (سبحانه) لوطاً عليه السلام، ثمّ قال عز من قائل عليهم فى بيان دعاء أكثر الرسل الى التوحيد: (ثمّ بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملائه) الى أخر ما قصه الله (عز وجل) فى سورة الأعراف من دعوات الرسل عليهم السلام، وختم ذلك (سبحانه) بذكر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقال الله تعالى: (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون).
وقال الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم: (الر كتاب أحكمت آياته ثمّ فصلت من لدن حكيم خبير الا تعبدوا الا الله انّنى لكم منه نذير وبشير)، فتفكر فى الدعوة، ما هى؟ فقد قص الله علينا فى كتابه العزيز دعوة الرسل من أولهم الى أخرهم، صلوات الله عليهم أجمعين، والله سبحانه وتعالى يقول فى سورة هود: (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما ثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) .
فانظر أيضاً ما فى أنباء الرسل من الفوائد العظيمة : (والله يدعوا الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم) .
وفى أول صحيح البخارى، عن ابن عباس فى حديث سفيان فى قصة هرقل أنه قال : "ما يأمركم به، قلت يقول أعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم" .
وحديث عمر بن عنبسة فى صحيح مسلم فى قوله : ما ارسلك الله به قال عليه الصلاة والسلام :"أرسلنى بصلة الارحام، وكسر الاوثان، وأن يوحدوا الله ولا يشركوا به شيئاً) .
فانظر الى ما ذكر فى الصحيحين فى معنى الدعوة والرسالة، وأنه توحيد الالوهية وترك الشرك، ورفض ما عليه الاباء، لو كانوا مشركين، وتفكر فيما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم، وأصحابه بعد النبوة وقبل الهجرة، ما كانوا يدعون الناس إليه وينهونهم عنه، والقرآن ينزل عليه عشر سنين، والناس ما بين مقبل ومدبر، والموالاة والمعاداة قائمة بين المقر والمنكر، و مكث على ذلك عشر سنين، من اتبعه وأطاعه فهو الموحد الناجى، ومن عصاه وخالفه، فهو المشرك الهالك، وليس إذ ذاك صلاة ولا صيام، فضلاً عن غير هما من شرائع الاسلام، ولا هناك نهى عن شئ من الكبائر، تقام فيه الحدود والأحكام، ومات على ذلك كثير من الفريقين، فريق فى الجنة وفريق فى السعير. فإذا تفكرت يا أخى، ظهرت لك الفائدة، وعاد عليك النظر بأحسن فائدة، وتبين لك أن الذى طلبه الرسول صلى الله عليه وسلم منهم هو توحيد الالوهية، وإفراد الله بالعبادة، وأن الذى نهاهم عنه، هو الشرك بالله

في العبادة، من الذبح، والاعتقاد، والعكوف ونحو ذلك، وأنهم مشركون بذلك، يعاديهم عليه ويحاربهم فيه، من غير نظر الى بقية المعاصى، الكبائر والصغائر، وأن أصحابه هم الموحدين بترك ذلك، وصرفه لله دون غيره، يواليهم عليه، ويدعوهم اليه من غير نظر الى غيره، من الطاعات والواجبات، والمندوبات، وبهذا التقرير، يحصل التأثير وتنقشع ظلمة الجهل بهذا التنوير.
قال تعالى : (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) .

الدرجة الثانية

إن المشركين يقرون بتوحيد الربوبية، الذى هو الإفراد بأفعال الله، وصفاته، واتصافه بذلك دون غيره، كالخالقية، والرازقية، والملكوتية، وغيرها من صفات الربوبية، وأن غيره مربوب له، ومخلوق له، ومرزوق ومتصرف فيه، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشورا، وأنهم مقرون بذلك، وإن ذلك لم يدخلهم فى الاسلام، ولم يحرّم دماءهم وأموالهم لانتفاء شرطه وشطره، من توحيد الألوهية، والدليل على ذلك قوله سبحانه وتعالى فى سروة يونس: (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون) .
وبتفهم الآية تفريقهم بين الربوبية والألوهية، أنهما حيث اجتمعا افترقا وحيث افترقا اجتمعا، وعلى هذا سؤال القبر فى قوله من ربك، أي : من ألهك، لان توحيد الربوبية لا يمتحن بها، وكذلك قوله تعالى: (قل أغير الله أبغى ربا) أي إلها، وأما افتراقهما فقوله تعالى: (قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس) فاعرف هذا، وقال سبحانه فى سورة المؤمنين.
(قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى

تسحرون، بل اتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون، ما أتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلى بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) .
والاستفهام هنا للتقرير، وقد اخبرنا بما يقول العليم الخبير، وقال فى سورة العنكبوت: (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون) (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) وتفسير هذه الآية إيمانهم بتوحيد الربوبية، وشركهم فى توحيد الألوهية، وهنا اجتمع الشرك والأيمان اللغوى، وقال تعالى فى سورة الزخرف: (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون) وقال سبحانه وتعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) .
بل هذا فرعون مع أن دعواه أقبح دعوى، يقول الله فيه حاكياً عن موسى عليه السلام: (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) وقال إبليس اللعين : (إنى أخاف الله رب العالمين)
فبعث الله النبى محمداً، صلى الله عليه وسلم، يدعوهم الى الله، بأن يفردوه بالعبادة كما أفردوه بالربوبية، وأن يفردوه بكلمة لا إله الا الله، معتقدين معناها، عاملين بمقتضاها، لا يدعون مع الله أحداً، ولم ينكر المشركون على الرسل، إلا طلبهم إفراد العبادة لله وحده، ولم ينكروا الله ولا أنه يعبد بل أنكروا كونه يفرد.
(وقالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) .
وعبادتهم العكوف عند معابدهم، والهتوف عند شدائدهم والذبح لها، مع أعتقادهم أن صفات الربوبية لله وحده، ليس لشركائهم منها شئ، وأنهم يريدون التقرب بذلك والشفاعة عند الله، فبين شرك أهل زماننا وشرك الأولين فروق أربعة:
الأول: أنهم لا يشركون فى توحيد الربوبية، ولا يشركون فى الشدة، ويردون الشفاعة والقربة، ويطلبون من الله سبحانه بواسطتهم، ومشركو زماننا يفرقونهم فى هذه الأربع، والدليل على الأولى، ما مر آنفاً فى إقرارهم بتوحيد الربوبية، والدليل على أنهم لا يشركون فى الشدة قوله تعالى: (وما بكم من نعمة فمن الله ثمّ إذا مسكم الضر فاليه تجأرون ثمّ اذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون، ليكفروا بما أتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون) وقال تعالى: (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه، فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا) وقال تعالى : (فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون) .
وهذه اللام لام العاقبة عند النحويين أي : عاقبة شركهم الكفر والتمتع، ودليل أنهم يريدون الشفاعة ويطلبون القربة، قوله: (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار) .
والتقدير أي : قائلين ما نعبدهم الى أخره، وقال تعالى: (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض) .

وهذه الادلة هى دليل للمسألة الرابعة، أنهم يريدون من الله سبحانه لا منهم بل أرادوا الوسطاء فى هذا شركاً ، وتأمل أيها الناظر حال مشركى زماننا فى هذه الأربع، أنهم أشركوا فى صفات الربوبية، وفى الشدة، وطلبوا من معابدهم وأرادوا المطالب منهم، ويا عجباه من هذا.
والفطرة السليمة والعقول المستقيمة تدل عليه ضرورة، ولولا ان الشياطين إجتالت قلوب المشركين وغيرت الفطرة، وهذا هو الواقع وقد اشرقت المطالع وظهرت الأدلة للقارئ، والله سبحانه وتعالى يقول : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) .

الدرجة الثالثة

إن الإلهية هى العبادة ومعناها التوحيد، وقال ابن عباس (رضى الله عنهما) : كل ما ورد فى القرآن من العبادة ، فمعناها التوحيد، وقال تعالى فى سورة الذاريات (وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون) أي : يوحدون، وقال رب الارباب فى فاتحة الكتاب : (وإياك نستعين) أي نوحدك ونطيعك، وتقديم المعمول يفيد الحصر والاختصاص، كما ذكره علماء البيان، ومثل ذلك قوله تعالى : (إياي فاعبدون) وهذا يتضمن الأمر بالعبادة لله وحده، والنهى عن الشرك، فالضمير الظاهر المقدم يفيد النهى عن الشرك، وفعل الأمر يفيد وجوب العبادة لله تعالى، مثل قوله تعالى : (وأعبدوا الله وتشركوا به شيئاً) وقال عز من قائل فى سورة البقرة (وفى) أول اية فيها نداء : (يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) أي وحدوا ر بكم كما قاله المفسرون، وقوله تعالى: (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) الى أخر السورة التى تسمّى سورة

الاخلاص، أي إخلاص التوحيد العملى، فالعبادة فيها : وهى التوحيد وهى الدين المرضى ايضاً، وكرر النفى ليعم الماضى والمستقبل.
والتكرير يوجب التأثير خصوصاً أن الشرك العملى، يحتاج فى قلعه الى مثل هذا.
والمراد هنا أن العبادة هى الالهية المختصة بالله.
والعبادة فى اللغة : غاية التذلل والخضوع .
وشرعاً : ما أمر الشرع به من أفعال العباد وأقوالهم، المختصة بجلال الله وعظمته.
وهلى اسم جنس يشتمل على أنواع كثيرة، وأصل العبودية : الخضوع والذل والتعبد والتذلل والعبادة والطاعة ومنها الاستغاثة والذبح والنذر ونحوها.
وقد يجتمعان ويفترقان، أعنى الطاعة والعبادة:
فإن قيل ان الذم بالتكفير ورد من عبد الاصنام والأشجار والأحجار او عبد الطاغوت من الكهان او الشيطان، فكيف يكون ما نزل فيهم، فيمن عبد الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين؟
فالجواب : إن ما يعبد به الاصنام من الدعاء والذبح والاعتقاد هو الذى يفعل للأولياء وغيرهم، والذى يطلب منهم هو الذى يطلب من اؤلئك المذمومين، وفعل المشركين الآخرين، فقد استوت الكفتان وتشابهت الطائفتان، وإذا استوى الاصل والرفع فى العلة، استويا فى الحكم، فكيف إذا وجد النص المقدم على القياس، إذا فقد ارتفع الاشكال والالتباس، وإذا لم يبق الا النظر بين عباده الصالح والطالح، فهاك الدليل الواضح.
(الرحمن*علم القرآن*خلق الانسان*علمه البيان* الشمس والقمر بحسبان* والنجم والشجر يسجدان* والسماء رفعها ووضع الميزان* الا تطغوا فى الميزان* وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) .
والدليل العام قوله تعالى: (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) وقال تعالى فى سورة سبأ: (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ومالهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير، ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له) .
ففى هذه الآية نفى ما يتعلق به المشركون من الملك، والشرك، والظهير، الشفاعة بغير إذنه، وقال تعالى : (أؤلئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) .
وقد ذكر السلف أن هذه الآية نزلت فيمن يعبد عزيز والمسيح ونحويهما، ولفظة الذين من صيغ العموم، وأما الدليل الخاص فقال سبحانه فيمن عبد الملائكة: (ويوم يحشرهم جميعاً ثمّ يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) .
فان قيل قد كانوا يعبدون الملائكة، فكيف قال يعبدون الجن؟
قيل : معنى يعبدون هنا : يطيعون الجن فى عبادة الملائكة، قال تعالى فيمن عبد موسى عليه السلام: (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم) . وقال تعالى فى عيسى والذين عبدوه) .

(وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) وقال تعالى: (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) وقال سبحانه وتعالى: (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) .

الدرجة الرابعة

إن الاله هو المعبود بإجماع أهل العلم، والدليل على ذلك قوله تعالى فى سورة الزخرف: (وهو الذى فى السماء اله وفى الأرض إله) ، يعنى معبوداً يعبد فى السماء ويعبد فى الارض، قال قتاده ولا يصح غيره، وقال سبحانه وتعالى فى سورة الانعام: (وهو الله فى السموات وفى الأرض) أي : اله معبود فى السموات، ومعبود فى الارض، وقال تعالى فى سورة الجاثية: (افرأيت من اتخذ الهه هواه)

وقال في سورة (ص) حكاية عن قريش أنه لما قال صلى الله عليه وسلم "أتعطونى كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم" فقل أبو جهل : لله ابوك لنعطينكها وعشر أمثالها.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قولوا لا إله الا الله" فتفقروا من ذلك وقاموا، وقالوا : (أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشئ عجاب) ذكر هذا البغوى رحمه الله، وقال سبحانه فى سورة الزخرف : (وقالوا أآلهتنا خير ام هو ما ضربوه لك إلا جدلا) وفى سورة الطور قال سبحانه: (أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون) وقال تعالى: (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون، قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين) وقال سبحانه : (وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ اصناماً آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين) وقال تعالى فى سورة طه حكاية عن قوم موسى للسامرى: (وانظر الى إلهك الذى ظللت عليه عاكفاً لنحرقنه ثمّ لننسفنه فى اليم نسفا إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شئ علما) فلما عكف السامرى على العجل صار إلها بزعمه، لأن العكوف عبادة له، وقال تعالى فى سورة البقرة: (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) ، أي شركاء، وقال ابن مسعود وابن عباس : أكفاء الرجال يطيعونهم فى معصية الله، وقال سبحانه وتعالى فى سورة البقرة: (ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله) ، قال مجاهد عند قوله تعالى : (يعبدوننى ولا يشركون بى شيئا) أي لا يخافون غيرى ، وقال فى سورة براءة: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا إلها واحداً لا إله الا هو سبحانه عما يشركون) ففى تفسير الآية عن عدى بن حاتم : " ان عبادتهم طاعتهم فى المعصية" ، وقال أبو العالية، ومنه قولهم : لا نسبق علماءنا : "ما أحلوه حل وما حرموه حرم" ، وقال سبحانه وتعالى : (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) لما حللوا لهم الميتة، وقالوا ما ذبح الله حلال، وفى تفسير قوله تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله) .
قال ابن جرير : "يعنى يطيع بعضنا بعضاً فى معصية الله"، وفى سورة الذاريات : (ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إنى لكم منه نذير مبين) ، وقال تعالى فى سورة الشعراء حكاية عن قول فرعون لموسى : (لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين) وقال فى - سورة العقود- سورة المائدة : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) ، وقال فيها : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله الا إله واحد) ، وقال سبحانه : (ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم أنظر أنى يؤفكون. قال أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم) .
ففى هذه الدرجة تعريف الإله وانه المعبود، وقيل : هو الذى يطاع محبة وخوفاً ورجاء وتوكلا، وهو اسم صفة لمن يعبد، ومن أعظم

أنواع العبادة الدعاء ، والمحبة – كحب الله – وأما الطاعة في المعصية، والعكوف فيها فإنه يكفر من يسمى الله غير الله أو قال : (ثالث ثلاثة) فإذا عبده ولم يسمه إلها وسماه نبياً، او صالحاً أو أولياء او إماما أو شجراً أو حجراً، فالأسماء لا تغير المعاني عن حقيقتها، كما لو يسمى الخمر لبناً، وقصة ذات أنواط فيها البيان التام، فإنهم لم يسمونها إلا ذات أنواط، ولم يقولوا صريحاً اجعل لنا إلها، فقال عليه السلام: "إنها السنن" قلتم كما قالت بنوا إسرائيل (أجعل لنا إلها كما لهم آلهة) رواه الترمذى. وكذلك عابد الشئ يسمى عبداً له بدليل الحديث الصحيح : "تعس عبد الدينار" إلى أخره فبسبب التعلق به أطلق عليه اسم العبودية، وقد قال ابن العربى المالكى : ان الاحكام، تعلق بمسميات الأسماء لا بألقابها، ولا بالتسمية، وقال سبحانه وتعالى فى سورة الانبياء: (إم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون، لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون، لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون، أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل اكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون) .

الدرجة الخامسة

إن الدعاء من العبادة : بل هو مخها ورأسها وافضلها، وفى الحديث "أكرم شئ على الله الدعاء" وورد "أفضل العبادة الدعاء" أخرجه الحاكم وصححه .
وورد "الدعاء هو العبادة" أخرجه الترمذى وهذا يدل على الحصر أي حصر الخبر فى المبتدأ، لأجل الفصل بينهما بالضمير، فان دلت قرينة على عدم الحصر، فيكون للتميز بأفضلية ما، وللمبالغة والاهتمام بشأن الشئ، وقد سبق "ان معنى العبادة التوحيد، والدعاء عبادة" .
فدعاء غير الله شرك ومن الادلة على ذلك قوله تعالى: (أدعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين، ولا تفسدوا فى الارض بعد إصلاحها وأدعوه خوفاً وطمعاً إن رحمت الله قريب من المحسنين) فقد جمع فى هاتين الآيتين دعاء العبادة ودعاء المسئلة، وأنهما مختصان بالله تعالى، وفى سورة البقرة قال تعالى: (وإذا سالك عبادي عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان) وسبب النزول يبين أن الدعاء هو النداء والمسألة، لأنهم قالوا "هل ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه" ؟.
فنزلت الآية الكريمة، ذكره فى تفسير الجلالين وقال فى سورة الاسراء: (قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى، ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) ، وفى التفسير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ذات ليلة فجعل يقول "يا الله يا رحمن" فقال ابو جهل ان محمداً ينهانا عن آلهتنا، وهو يدعوا الهين ، فأنزل الله هذه الآية.
والنظر فى أسباب النزول محط أنظار أسباب العقول، وفى سورة نوح: (قال رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائى الا فراراً، وأنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم فى أذانهم) الآية.
فهذه نصوص صريحة، ان الدعاء عبادة وانه النداء، وأنه المنهى عنه، وأن المنادىَ يكون الهاً للمنادي، وأن ذلك شرك وقد قال سبحانه وتعالى: (ثمّ الذين كفروا بربهم يعدلون) وقال سبحانه: (قالوا وهم فيها يختصمون، تالله إن كنا لفى ضلال مبين، إذ نسويكم برب العالمين) وقال تعالى فى سورة الأعراف : (فلما تغشاها حملت حملاً خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما) الى قوله (جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون) ففيه أن الدعاء: (لئن اتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين) وهنا الشرك فى مجرد التسمية، وهنا يقال أشركا فى طاعته لا فى عبادته، وتكريرنا الاستدلال على أن الدعاء هو النداء، لأن أهل التفاسير يحملون الدعاء أحد خمسة معانٍ بحسب المقام عند كل آية: وأصل الدعاء فى اللغة الايمان، وفى القاموس، الدعاء : الرغبة الى الله، وعرف بأنه رفع الحاجات الى رفيع الدرجات .
وقد ورد الوعيد الشديد فى ذم من سأل الناس من أموالهم، خصوصاً إذا كان معه ما يكفيه، او ما يعيشه أو يغديه فكيف بمن

يسأل الاموات قضاء الحاجات، قال سبحانه : (او لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد) ، وقال سبحانه وتعالى فى سورة الجن: (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) ، وقال فى سورة الاحقاف: (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) ، وقال فى سورة يونس: (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين) وقال فى سورة المؤمنين: (ومن يدع مع الله إلها أخر لا برهان له عند ربه فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون) . وقال فى سورة العنكبوت : (فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر إذا هم يشركون، ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون) ، ففيهم من الآيات أن من دعا غير الله يكون ضال ظالم مشرك كافر، وهذه اللام لام للعاقبة أي عاقبة شركهم، والكفر والتمتع، فإن قيل : إن الداعى إنما أراد التقرب الى الله بدعوته والشفاعة الى الله.

فالجواب : إن هذا عين ما أراده المشركون، بدليل قوله تعالى: (ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى) وفى الاية الأخرى : (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) ، وختم الآية الاولى بقوله : (ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار) ، وختم الثانية بقوله سبحانه وتعالى : (عما يشركون) ، فان قيل : إنهم يظنون أنهم على هدى لا أنهم على ضلالة.

فالجواب : قال الله سبحانه وتعالى : (قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون، فريقاً هدى وفريقاً حق عليه الضلالة إنهم اتخذواالشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) .

ففيه دليل على ان الكافر الذى يظن أنه فى دينه على الحق والجاحد المعاند سواء، وقد فسر ابن عباس رضى الله عنهما (القسط) هنا بألا إله إلا الله وفسره الضحاك بالتوحيد، وقال سبحانه :(ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) وفى تفسير البغوى عند قوله تعالى فى سورة يونس : (وهو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين) .

قال : أي أخلصوا فى الدعاء لله ولم يدعوا أحداً سوى الله تعالى. إنتهى.

ففيه : أن الدعاء هو الدين، والاخلاص فيه هو التوحيد ودعوة غير الله شرك .

فإن قيل : إن الدعاء لغير الله يكون من الشرك الأصغر مثل الطيرة والحلف بغير الله لأنه قد ورد أنها شرك وفسروها بالأصغر.

فالجواب : إن الحلف يكون تارة من الأكبر إذا قصد به تعظيم المخلوق كتعظيم الله، وأيضاً لا مساواة لأن الحلف والطيرة لم يقع النهى عنهما إلا بعد مدة من الاسلام ووقع من الصحابة بعد إسلامهم كالمشرك بالنوء أيضاً.

وأما الدعاء لاعتقاد النفع والضر من المدعو من دون الله لقضاء الحاجات، وإغاثة اللهفات، وشفاء المريض، وقضاء الغرض، فهو الذى كان عليه المشركون، وهذه عبادتهم وشركهم، والعكوف والذبح ونحوهما فروع هذه المطالب، ونتيجة إشكال دعوة الميت والغائب يجعلوا منهم وسائط بينهم وبين الله، والوساطة فى هذا منتفية، وفيها تشبيه للخالق وهى شرك محض.
والبعث والدعوة لتوحيد الالوهية، وهى : العبادة وأن تكون كلها لله وهذا هو المراد عند القول : إن دعاء غير الله شرك أكبر، ومن قال لا إله إلا الله ودعا غير الله على ما ذكرنا فقد هدم مبناه، ونقض ما قاله ونفاه، ولم تصح بينته على دعواه والدعاوى ما لم يقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء، والله سبحانه وتعالى يقول فى سورة يونس: (ألا إن لله من فى السموات ومن فى الارض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن، وان هم الا يخرصون) .

الدرجة السادسة

فى بيان أن هذا كفر وشرك أكبر يحل الدم والمال ويخلد صاحبه فى النار إذا بلغته الدعوة وقامت عليه الحجة، وأبى وعاند مصراً على شركه معلناً بكفره .
إذا كان من الأكبر الذى لا يغفر فأما أنه شرك وكفر فلأن لفظ الشرك ومعناه هو أن تعبد غير الله وهذا هو الواقع، ولفظ الكفر هو الجحود والتكذيب بما علم بمجئ الرسول صلى الله عليه وسلم به ضرورة فهذه الاسماء والمسميات بينهم ما بين الامهات والبنات، وقد ذكر ابن هشام فى السيرة انما كانت عبادة المشركين العكوف والدعاء ونحوهما من الذبح والطواف.
وفى زاد المعاد لابن قيم الجوزية رحمه الله فى المغازى فى فصل قدوم وفد خولان وهم عشرة أنهم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما فعل عم أنس؟" – وهو صنم خولان الذى كانوا يعبدونه – قالوا : شر بدلنا الله به ما جئت به، وقد بقيت منا بقايا من شيخ كبير وعجوز كبيرة مستمسكون به، ولو أقدمنا عليه لهدمناه إن شاء الله، وقد كنا منه فى غرور وفتنة.
فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أعظم ما رأيتم من فتنة؟" قالوا: لقد رأيتنا وقحطنا حتى أكلنا الرومة، فجمعنا ما قدرنا عليه، وابتعنا به مائة ثور، ونحرنا لعم أنس قرباناً فى غداة واحدة، وتركناها تردها السباع، ونحن أحوج اليها من السباع، فجاءنا الغيث من ساعتنا، ولقد رأينا الغيث يوارى السباع ويقول قائلنا انعم علينا عم أنس.
وذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانوا يقيمون لصنمهم هذا من أنعامهم وحروثهم، وأنهم كانوا يجعلون من ذلك جزءاً له وجزءا لله بزعمهم الى آخر القصة. وفيها : وكنا نتحاكم اليه، انتهى.

وقد ذكر قطرب فى قوله تعالى: (وما ذبح على النصب) إن (على) بمعنى اللام أي ما ذبح لأجل النصب، فان جادل مجادل وأنكر منكر وكابر مكابر فى هذا الأمر الظاهر فقل له بين لى الشرك ما هو وما الذى حرمه الله تعالى ونهانا عنه، وما الذى كان يعبد به المشركون أصنامهم المنقوشة وأنصابهم وغيرها من معبوداتهم.
فإنه لا يجد جواباً أبداً إلا أن يقول إنه عبادة الله وعبادة غيره إما بدعاء او بالذبح او بغيرهما من العبادات، واصح الشهادات ما شهد به الأعداء. او يقول لا أدرى.
فقل له : تنكر ما لا يعرف وتجحد ما لا تدرى، وكذلك تقول له فى العبادة التى فرض الله علينا وأمرنا بها وخلقنا لها وهى حقه علينا ومستحقه.
لدينا، إن صرفناها إليه وعبدناه بها كنا من الموحدين وإن صرفنا لغيره وعبدناه بها صرنا من المشركين .
فان عرفها وبينها وإلا فبين له ذلك بأقسامها من الاعتقادات القولية والفعلية والبدنية والمالية (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) .
والطغيان منها أن لا يشك فيها ولا يرتاب ولا يتكبر ولا يجور ولا يستخف بها، وأن تحجزه عن المعاصى وأن يقولها مخلصاً من قلبه، وقدر ورد : احفظوا العلم بقيوده .
بل أئمة المذاهب الأربعة قد صرحوا بوجوب قتال مانع الزكاة او تارك الصلاة بل تارك الأذان وصلاة العيدين لأنهما من شعائر الاسلام.
بل نقل بعضهم الاجماع على قتال طائفة ممتنعة عن فرضة من الفرائض المشهورة.
وذكر النووى فى شرحه على الأربعين: أن الواحد كذلك مع أنه يدخل فى اسم الطائفة.
وفى الحديث عن بريده بن حصين فى وصيته للرسول صلى الله للغزو قال: "أغزوا باسم الله قاتلوا من كفر بالله" أخرجه ابو داود والله يقول لخير الخلق أجمعين: (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) .

الدرجة السابعة

لذا قيل : هذه الايات أنزلت فى المشركين عباد الأصنام المحاربين لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم فلا تكون فى غيرهم ولا تشتمل على سواهم.
فالجواب : إن الجامع بين المشركين من الأولين والآخرين موجود هو الشرك، فالحكم فى ذلك واحد، لا فرق فيه لعدم الفارق ووجود الجامع، وفى الحديث: "حكمى على الواحد كحكمى على الجماعة" وفى أصول الفقه : أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.
ويلزم من هذا الاعتراض أن يقال : كل حكم نزل على سبب مخصص فى قضية سالفة فهو لا يتعداها الى غيرها. وهذا باطل وتعطيل لجريان الاحكام الشرعية على جميع البرية. فان آيات الحدود والجنايات والمواريث والديات نزلت فى قضايا قد مضت ومضى أهلها الذين نزلت فيهم وحكمها عام الى يوم القيامة، لأن العام لا يقصر على السبب وخطابات الشرع تتعلق بالمكلف المعدوم تعلقاً معنوياً، وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما فى مثل ذلك فيما نزل على بنى اسرائيل وأنه علينا مثلهم، فقال : "ما أشبه الليلة من البارحة" .
وقال بعضهم الاخوة بنو اسرائيل، اذا كان كل حلوة لكم وكل مرة لهم.
وفى الاصول الفقهية أن شرائع من قبلنا شرائع لنا عند الثلاثة .

وعند الشافعى أنه شرع لنا إذا ورد تقريره فى شرعنا، وهذه المسائل ورد شرعنا فى تقريرها، ونطق القرآن والسنة بتكريرها وإنما هذا جواب عن السؤال وإلا فما نهى عنه صلى الله عليه وسلم مشركىالعرب وقاتلهم عليه ونزل القرآن فيه آيات محكمات غير منسوخة للأول والأخر، بل والآيات النازلة فيمن قبلنا من الأمم مع إن شرعنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم أغنت وأقنت وأكفت وشفت وأعادت وأيدت وأظهرت ومضت، فلله الحمد رب السموات ورب الأرض ورب العالمين، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم.

وفى تفسير آخر البقرة أنهم قالوا : أكلفنا من العمل ما لا نطيق. فقال صلى الله عليه وسلم "أتريدون أن تقولوا كما قال من قبلكم سمعنا وعصينا" فشبه ما قالوا من الكلام بقول من سلف من الانام.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه إذا رأى مخيلة تغير وجهه وتلون ودخل وخرج وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت السماء سرى عنه، قالت فذكرت له الذى رأيت فقال: "وما يدريك لعله كما قدم فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا" .

والله سبحانه قد تبين لنا الاحكام وفسر لنا الحلال والحرام، وأحاط الشريعة المحمدية بدقائق العلوم واشتملت على الفروع والأصول بالمنطوق والمفهوم، وقد تركنا صلى الله عليه وسلم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها وما طار طائر فى الجو الا جعل لامته منه ذكراً، وقد أفادت السنة بكيفية الاستجمار بالأحجار كيف وصفها، بل فى سنن ابى داود وفى آداب التخلى قولهم : "لقد علمكم نبيكم حتى الخراءة".

فما بالك أيها الانسان بمسالة عظيمة مهمة، لأجلها أعدت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين، ولا يبينها ويوضحها ويشرحها.

كلا والله لقد بلغ البلاغ المبين صلى الله عليه وسلم صلاة دائمة الى يوم الدين، وكتب المغازى والسير تدل على ذلك، وأن هذا الذى قاتل عليه النبى صلى الله عليه وسلم المشركين وحاربهم عليه، ولم تكن عبادتهم للأصنام وبحقها إلا الدعاء والتعلق والاعتقاد فيهم الالتجاء اليهم والعكوف عندهم، وأما أنه يخلد صاحبه فى النار فالدليل قوله تعالى: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله).. الى قوله : (وما هم بخارجين من النار) وقال سبحانه وتعالى : (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار) ، وأما الدليل على القتال فقوله تعالى : (فإذا انسلخ الشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم وأقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) . قال الحسن بن الفضل : هذه الآية نسخت كل آية فيها الاعراض والصبر على الأذى من الاعداء، ومعنى قوله تعالى : (فان تابوا) أي : عن الشرك والكفر، وقال سبحانه وتعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) أي : وحده لا يعبد غيره، وقيل : أي يكون الدين خالصاً لله لا شرك فيه، وفى تفسير الجلالين : إن الفتنة هنا هى الشرك، وقال سبحانه وتعالى : (وقاتلوا المشركين كافة) وفى الصحيح: "أمرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وإذا فعلوا ذلك

عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله" قال النووى رحمه الله : قال الخطابى : فمعلوم أن المراد بهذا الأوثان دون أهل الكتاب لأنهم يقولون لا إله إلا الله ثمّ يقاتلون ولا يرفع عنهم السيف.
وذكر القاضى عياض رحمه الله ان اختصاص عصمة النفس والمال بمن قال لا إله إلا الله تعبيراً عن الاجابة والايمان، وهذه فائدة عظيمة فاستفدها، وفى الاحاديث النبوية قيود وشروط لفوائد لا إله الا الله إذا تأملها الانسان خاف على أهل الايمان فضلاً عن أهل الشرك .
(بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم) .
أخرج الحديث البغوى بمسنده ومثله فى صحيح البخارى وقال الامام ابن القيم رحمه الله فى مبحث الشرك الأكبر الآية التى فى سورة سبأ : (قل ادعو الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض وما لهم فيها من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) .
والقرآن مملوء من أمثالها ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته ويظنون بقوم خلوا ولم يعقبوا وارثاً، وهذا الذى يحول بين القلب وبين فهم القرآن، كما قال عمر رضى الله عنه "إنما تنتقض عرى الاسلام عروة عروة اذا نشأ فى الاسلام من لا يعرف الجاهلية" وقال سبحانه وتعالى: (ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم) .

الدرجة الثامنة

فى ذكر من قال إن هذا شرك يحل الدم والمال ويوجب الحرب والقتال بعد قيام الحجة وبلوغ الدعة ووصول العلم وظهور الكفر منه، وهذه الاشياء قيود وشروط لما اطلقه فى هذا المبحث ولا تكفير بالظن أيضاً، فالعلم بالاستقصاء غير ممكن، وليس بعد كلام الله سبحانه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم كلام يطلب الاستدلال (فماذا بعد الحق الا الضلال) ومن أصدق من الله حديثاً، والسنة النبوية هى الحجة عند النزاع، والمراد تنازعت الأشياع فمن استدل بها واعتمدها فقد افلح، ومن استعملها ووزن بها فميزانه

الارجح، قال تعالى: (ما ينطق عن الهوى إن هو الا وحى يوحى) وقد سمعت ما مر من الآيات البينات والأحاديث الواردات.

إذا البينات لم تغن شيئاً فالتماس الهدى بهن عياء

وإذا ضلت العقول على علم فماذا تقول النصحاء؟ لكن سنذكر من كلام العلماء ما يدل على أنهم ورثة الانبياء ومصابيح الظلماء، فأولهم صديق هذه الأمة أبو بكر رضى الله عنه، فإنه قال فى قتال أهل الردة : (لأقلتن من فرق بين الصلاة والزكاة، بل قال : لو منعونى عقالاً كانو يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلهم عليه واستحل دماءهم وأموالهم بمحضر من الصحابة رضى الله عنه فصار إجماعاً، وأكبر شى فى ردتهم على تنوعها، قولهم إن مسيلمة الكذاب نبى، فكيف بمن قال إن غير الله إله يعبد او عبده أو اعتقد فيه الالهية وجعله متصفاً، وإن لم يقلها بلسانه، ووافق عمر رضى الله عنه على قتال من فرق بين الصلاة والزكاة بعد أن توقف منهم ، ثمّ ظهر الدليل فسلكوا سواء السبيل.
وقال بكفر تارك الصلاة جماعة من الصحابة والتابعين، ففى كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى عن ابن حزم أنه جاء كفر تارك الصلاة عن عمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبى هريرة.
وقال المنذرى وقد ذهب جماعة من الصحابة ومن بعدهم الى تكفير تارك الصلاة متعمداً حتى يخرج وقتها، ومنهم ابن مسعود وابن عباس وابن عمر، ومن غير الصحابة أحمد بن حنبل وإسحاق وابن المبارك هذا، فى تركها .
وقد صنف القحيطى فى ذلك مؤلفاً ، وأما جحودها فكون ذلك كفر، فمسالة وفاق بين العلماء فكيف بمن ترك التوحيد او جحد حق الله على العبيد او جعل المخلوق فى مرتبة الخالق وشبه بالشرك والتنديد.
وقد ورد الوعيد الشديد فيمن تكلم بالكلمة من سخط الله لا يرى لها باساً – وفى رواية لا يريد بها بأساً – لا يتبين فيها ولا يظن ان تبلغ به ما بلغت . فيفطن لها فإنها مفيدة، بل فى قصة غزوة تبوك ان الذين تكلموا بالكفر ونزل فيهم قوله تعالى (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) أنهم اعتذروا بالمزح والخوض واللعب ولم يعذروا، ونزل قوله تعالى : (قل أبالله وأياته ورسوله كنتم تستهزئون) .
وقد حكم الصحابة بكفر من استحل الخمر متأولا قوله تعالى : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) .
ومن أولئك قدامه بن مظعون لكنهم تابوا ورجعوا عما تأولوه، كما وقع لحاطب بن أبى بلتعة مما ذكره الله فى سورة المائدة وهم عمر بقتله، لو لا ما ذكره من العذر.
فما بالك بمن استحل الشرك ولو كان أصغر فإن استحلال المحرم القطعي كفر إجماعاً، وكذلك حكم ابن مسعود فى زمن عثمان بكفر الذين تكلموا فى مسجد بنى حنيفة فى الكوفة بأن مسيلمة مصيب فى دعواه، وحكم على رضى الله عنه بكفر الذين غلوا فيه واعتقدوا فيه صفة الالوهية ثمّ حرقهم بالنار. فهذه سيرة الخلفاء الراشدين فيمن كان يقول لا إله إلا الله ثمّ صدر عنه ما ينافيها وينقض بنيانه فيها،

وإن كانوا بين معتذر ومتأول وتائب إنما الغرض التكفير وأن ذلك كفر وشرك وإن كانوا من قبل مسلمين.
وأما ما حصل بعد الخلفاء فمن ذلك حكمهم بقتل الجعد بن درهم وجهم ابن صفوان لتعطيل رب العالمين من الصفات التى نطقت بها الآيات، ولقولهم : إن القرآن مخلوق وإن الأمر آنف. حتى صار أهل الكلام من فرق الضلال وأفتى الشافعى بتحريمه.
(أي : تحريم علم الكلام، وهو علم الجدال) ، وأما إتباع الأئمة فأقاويلهم فى ذلك كثيرة، وأسلوب أهل كل مذهب أن يجعلوا باباً مستقلاً يسمونه باب الردة، وباب حكم المرتد ويفسرونه : المسلم الذى كفر بعد إسلامه، ثمّ يسردون المكفرات ويطيلون فيها المقالات ومن أوسعهم فى ذلك الحنفية، وأما الحنابلة فحصرها بعضهم فى أربعمائة مسالة كل واحدة تنقض الاسلام وتلحق فاعلها بعبدة الاصنام، والشافعية والمالكية لهم فى ذلك مباحث طويلة مثل ذلك، ولابن حجر الهيثمى مؤلف سماه الاعلام بقواطع الاسلام وفى مؤلفه الزواجر نبذة من ذلك، وفى مشارق الانوار من كتب الشافعية باب طويل فى ذلك، ولابن المقرئ فى مؤلفاته نحو ذلك، وشراح المنهاج للنووى اوضحوا تلك الهوالك .
ونقل الامام ابن تيمية والشيخ ابن حجر الاجماع على كفر من جعل بينه وبين الله واسطة يدعوهم ويتوكل عليهم، وبعض ما ذكروا فى الردة فى مسائل فرعية ليست من القواعد الاسلامية ولا من الستة أصول الايمانية : الايمان بالله وملائكته، فما ظنك بمسالة التوحيد لله سبحانه وتعالى بالعبادة التى هى أصل "أمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها" فجعل الغاية التى ينتهى عندها القتال الثلاثة أمور المذكورة فى الحديث لأن القول المجرد عن الاعتقاد والعمل غير مفيد، والا فقد قال اليهود ذلك.
والمراد معناها لا مجرد لفظها، وأن يقولوها عن قوله عليه الصلاة والسلام ملتزمين معناها النفى والإثبات، عاملين بمقتضاها، غير فاعلين ما ينافيها من الشرك.
فإن قيل : فكيف إذا كانوا يأتون بالثلاثة المذكورة لكنهم يصرفون بعض العبادة الى غير الله مثل الاعتقاد فى المقبورين ونحو ذلك.
فالجواب : إن القصص المذكورة آنفاً فيمن جرى عليه القتل فى زمن الخلفاء هو فيمن كان يفعل الثلاثة الأمور ويناقضها بما يوجب قتله.
فإن قيل هؤلاء لم يعملوا ذلك وأنه ينافى أحسن المسالك؟.
فالجواب : إن المقرر إنما هو تكفير من بلغته الدعوة وقامت عليه الحجة وأبى وعاند بعد العلم مصراً على شركه، فمن حين ظهرت هذه الدعوة النجدية الى توحيد الالوهية وجرت عليها السيوف فمن ردها وأباها فالكلام عليه واللوم متوجه اليه، وهى الآن بحمد الله قد غارت وطارت، والقرآن العظيم أكبر حجة على من بلغه.
والمسائل الواضحة التى يشترك فى معرفتها الخاص والعام مثل توحيد الله بالعبادة، وأنه لا شريك له فيها، يدل عليها القرآن دلالة صريحة ومعقولة، للتالى والسامع هداية العقل الى ذلك ودلالته عليه وفهم الحجة غير بلوغها، وللعلماء وأقوال فى هذا المجال، وقد نص القرآن العظيم على ذم قوم يحسنون صنعاً وأما الاموات فقد افضوا الى ما قدموا.

وقد ورد النهي عن إيذاء الأحياء بسبب الأموات، وفيمن عمله منهم عمل المشركين وفعلة الكافرين، وأما من يعلم صلاحه وتوحيده فذلك الناجي سواء تقدم أو تأخر، ومن لا يعلم حاله أصلاً فكيف اللسان عنه جداً، لأن تكفير المعين يحتاج الى ثبوت إقامة الحجة عليه، وفي نجاة أهل الفترات مباحث واختلافات والشأن كل الشأن فى حال أهل هذا الزمان، وهذا أمر مستفيض وشى مشهور (أعنى) علم التوحيد وأنه فرض لازم وعلم الشرك. وأنه حرام محض، ولكنها حصلت غلطات شنيعة، وعادات فظيعة، وأعمال كفرية وأقوال شركية، وردت صريحة وأفعال قبيحة تتابع فيها كثير من الناس وقلد بعضهم بعضا إلا قليلا من (الاكياس) .

وكادت أن تنطمس أثار مبانى الشريعة، وتنهدم مشايد معانيها المنيعة، وما أتى الناس إلا من قبل الديانات، وهى أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها.

حتى بزغ قمر التجديد وطلعت شمس التوحيد بدعوة شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب ، أسكنه الله جنة المآب، فنور الظلام، وجلى الله به القتام، وبين سبل السلام الى بلوغ المرام، وألف المؤلفات فى توحيد الله بجميع العبادات، مع إقامة الحجج القاطعة، والإنصاف التام فى المناظرة والمراجعة .

فعاد قارح الاسلام به جدعاً، ورجع دارس الأحكام به منتجعاً، وكان رحمه الله سنياً أثرياً متبعاً، فأجاب دعوته ولباه وأولى غربته السعيد المسعود، محمد بن سعود على قلة الاعوان، وابتكار لهذا الشأن، ثمّ وأزره لمجهوده وبطوقه، وعاضده حتى استوى على سوقه، الامام عبد العزيز ابن محمد بن سعود، حتى أورى قبساً لقابس من أنوار التوحيد، وأروى عطشا لعاطش من شراب التجريد، ثمّ ولى الخلافة على المسلمين فأحسن قراها بالهدى والتمكين، الامام السعود بن عبد العزيز ايده الله، فزاع جميع المسلمين بقرآنه وسلطانه، وزعزع صقع المشركين بتوحيده وإيمانه، فى سياسة شرعية وسيرة عمرية،

وصارت جزيرة العرب بولايته عليها فى سرور وطرب، إمام ناصح لله، فنصح له بلغه الله ما أم له وما أمله.

وهذه النسخة المجموعة والفوائد المسموعة قطرة من مطرة من سحائب الدعوة، ودرة من عجائب أولئك الصفوة.

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

حرر بشهر شوال سنة 1222هـ

الفقير الى الله (محمد بن أحمد الحفظى)، غفر الله لهما.

تم تنـزيل هذه المادة من منبر التوحيد والجهاد

http://www.tawhed.ws
http://www.almaqdese.com
http://www.alsunnah.info